طقوس الانكسار

ارتديت ملابسي الثقيلة ونزلت من البيت .. كان الجو بارداً كعادة ليالى الخريف المائلة للبرودة، والتى تذكرنى بقرب الشتاء. قليل من البشر يمرون بالشارع عائدون إلى بيوتهم يترنحون من ثقل يوم ملىء بالبحث الدؤوب عن ما يسدون به أفواه من أثقل النوم جفونهم كي يريحوا المنهك من عناء أسئلة تقضى على أخر ما تبقى له من قوى .. لماذا تجتاحنى الرغبة فى رؤية أصدقائى الليلة؟.. أعشق طقوسهم الغريبه ، جلوسهم بالميادين المزدحمه وقت الذروة نهاراً، وسيرهم بالمدينة ليلاً .. "أنا بعشق البلد دى بالليل" أقولها فيردون علىّ: "بنعشقها فى أى وقت .. بالنهار وهي بتلبس توب وجعها، وبالليل وهى بتقلعه" .. بعضهم مازال يقضى فترة الجيش، والبعض الآخر .. منهم من علق الشهادة على الحائط ونزل يعمل شيئاً ما، ومنهم من ينتظر أى شىء، ربما أحدهم يجلس الآن فى المقهى.

اليوم الخميس والساعة تقترب من منتصف الليل، فيما سبق وقبل أن تفرق الأيام شملنا كنا نجتمع فى المقهى فى نفس التوقيت ثم نمضى، نقضى قرابة نصف الساعة ونحن نمشي فى اتجاه الميدان الواسع حيث الحديقة العامة .. نشترى أحد أنواع الفاكهة من البائع الذي ينتصف المسافة، ونغسلها فى كيسها من أحد "الأزيار" فى الطريق.

رجعت الى البيت قبل ساعة، لم أستطع الجلوس بين أربعة جدران وداخلى يتمزق، وتلك الخيالات تترآى أمامى كفيلم سينمائى .. الآن بالتاكيد قد أحكم غلق الباب وأنفرد بها بعد أنصراف الأهل ليهيئوا له الجو .. كم أسخر الآن من بعض أصدقائى الذين تحدثوا يوما همساً، وعندما سألتهم: "ايه اللى بيحصل؟" قالوا: "مش عايزين نخدش حياءك"، فهمت عن ماذا يتحدثون، ابتسمت وصمت، أغبياء لا يتخيلون أنها بين يديه الآن، يختلط عرقها بعرقه .. الحسرة تملأ قلبى رغم علمى أنه يأخد حقه فهى صارت زوجته، أما أنا فلم تعد لى صفه إلا وتلحق بكان .. كان صديقاَ، كان حبيباً، فى النهاية كان.

قبل أن أصارحها كانت تجلس أمامى مبتسمة، وعيناها تضحكان ويكسوهما لمعة لا يعرف سرها إلا من مس الحب قلبه .. تبحث عن شىء تتحدث فيه ثم تهتدى وتقول: "آه .. سمعت أم كلثوم أمبارح وهى بتغنى الحب كله؟"، أهز رأسى ولا أرد عليها بينما أغمض عينىّ وأتذكر أم كلثوم وهى تقول:" الهوى العطشان فى قلبى بيندهك يا أرق من النسمه وأجمل من ملك" .. تتملكنى نشوه غريبه، وتسرى فى بدنى قشعريرة فأحس بدمعه تأبى السقوط .. ولم أعد أقوى كثيراً على الصمت، فصارحتها فى نهايه سنة البكالوريوس: "لما أكون مستعد للجواز، وتكونى لسه ما أتجوزتيش هاتجوزك ".. فرحت باعترافى التى لم تفلح فى انتزاعه منى قبل ذلك كما أخبرتنى فيما بعد، وكل طاقات الحب التى أختزنت داخلنا تفجرت من ساعتها.

محطة الأتوبيس شبه خالية من المنتظرين .. كل المحال على الطريق كانت مغلقه إلا محل الفول والطعمية الذى يستقبل زبائنه طوال الأربع وعشرين ساعة .. السيارات تمرق بسرعه وثمة موسيقى صاخبة تنبعث من أحداها، وقفت على المحطه لأختار بين ركوب أحدى سيارات الأجره أوالمشى، فبينى وبين المقهى قرابة المحطتين، ولكن رغبتي فى انفرادي بنفسى لبعض الوقت جعلتنى أرتاح لفكرة المشى.

الهواء البارد الذى يتسلل إلىّ رغم الملابس الثقيله جعلنى أتمنى أن تمطر السماء .. فكانت "أميرة" تحب

المطر وتؤكد أنه لا يغسل البيوت والشوارع فقط، إنما يغسل هموم البشر أيضاً، وأحيانا يطهرهم مما قد علق بهم رغما عنهم .. أه .. هل لونزل المطر الآن سيكون قادرا على غسل همومى؟.
أعمدة الأنارة على جانبى الطريق أضواءها جعلت لى أكثر من ظل يتقدمونى جميعاً بزوايا مختلفه .. أسير عليهم بخطوات بطيئة لها وقع رتيب .. خطرت لى فكرة أن أسرع فاتجاوز ظلى فغير المعقول أن يدوس الانسان على نفسه حتى ظله.. أسرعت محاولا تجاوز الظل .. زادت سرعتى حتى لاحظت أنى أجرى كمن يهرب من شىء ما ، فوقفت وابتسمت ساخراً وقد فطنت أن المشكلة ليست فى أو فى ظلى إنما فى أعمدة الأنارة التى تصطدم أضواءها بجسدى فتجعل ظلى أمامى، ولن أقدر على تجاوز الظل فى وجودها.
فى المرات القليلة التى مشيت معها على الكورنيش، وبين الحدائق ووسط المدينة .. كانت تحكى لى عن تلك الرياح العاتبة التى تقابلها فى بيتها .. أبوها يطالبها بالبحث عن عمل لكى تساعده فى تجهيزها .. أمها تنبهها كثيراً للأهتمام بمظهرها خاصة وكل أسبوع يأتى أحد الأشخاص لمعاينتها .. أخوها آمرها بعدم الخروج كثيرا فلم يعد هناك مبرراً بعد أنتهاء الجامعة .. أختها التى تليها تتضايق عند خروجها لأنها تقلل من فرصة أختيارها للملابس من بدائل أكثر .. يبدون أن كل البيوت - بيوت البسطاء - تقابلها رياح عاتيه .. فقطعة الأرض التى أختزنها أبى للحاجة، باعها لكى يتم تجهيز أختى على أكمل وجه، ولكن بعد سنتين من الزواج وسلسلة من الغضبات فاجأته أختى بالطلاق ، وطفل لم يتم عامه الأول، فرح به أبى كثيرا لأنه ملأ البيت بهجة بعد أن كبرنا جميعا، ومكثت أمى كثيرا فى سرير المرض حزناً على فشل الأبنة التى لم تعمر .
وقفت أمام المقهى كان "حسن" يجلس بالداخل يلعب الطاولة مع شخص ما .. ناديت عليه فرفع رأسه مبتسما وأشار لى بأن أدخل، فأشرت له بأن يخرج .. خرج وصافحني وقال: "ما تدخل نقعد ده سامى جاى دلوقتى" رددت بحسم :"لأ أنا عايز أتمشى" .. صمت وأخذ يتأملنى ثم رد: "طيب" دخل المقهى واستأذن من رفاقه .. خرج وأصطحبني حيث بيت سامى .. فى الطريق قال وهو يحاول أن يجد مدخلا للحوار معى: "ده سامى عدى علىّ وهو راجع من الشغل وعايز يسهر الليلة زى زمان .. تصور أنه توقع أنك تجى لما قلت له نروح لك ".. وعندما وجدنى لا أتكلم فضل الصمت .. وقفنا أمام بيت "سامى " ونادى "حسن" عليه ، فطل علينا من الشرفة ورحب بنا ثم تسأل: "تطلعوا ولا أنزل؟" فرد حسن: "لأ أنزل".
سلكنا نحن الثلاثة طريقنا المعتاد، كانت حالتى مدعاة لقلقهما على إذ يعرفان أن اليوم يوم زواجها .. تأبط سامى ذراعى وقال فى حميمية: "مالك يا محمد؟ .. أنت لسه بتفكر فى الموضوع إياه .. يا سيدى نحن السابقون وأنتم اللاحقون. أكمل حسن وقد أمسك بالخيط:" يا ابني ده نصيب فى الأول والآخر، وماحدش عارف نصيبه فين".. آه من كلمة النصيب هذه .. كل شىء يحدث فلا نتحرك لأنه النصيب، لكن كيف نرجع ماحدث لسامى على أنه النصيب، والأمر كله يرجع لتلك التى أحبها حيث بعد فترة اتهمته بالأهمال وعدم الاهتمام بها، وأكدت له أنهما لم يستطعا أن يتفاهما وعليهما أن يرجعا أصدقاء لأنها لا تود أن تخسره، ورفض سامى هذا المنطق لأنه إنسان وليس فأر تجارب .. أفترقا وأخطر ما فى الموضوع تأكيده أن معرفته بها تؤكد أن هناك شيئاً ما أكبر مما تقول، وأبدى أسفه لأنه لم يستطع تحديد ذلك الشىء.
أثناء فترة الجيش أخبرتنى "أميرة" أن شخصاً قد تقدم لخطبتها ووافق أبوها .. ساعتها ترددت داخلى جملة صدقى الأديب التى كنت أكذبها فيما مضى: " بعد الجامعة يذهب هو الى الحرب ، وتذهب هى لرجل أخر وتبقى الجامعة كما هى "..يقولها ويتداعى فى الحديث عن "إبراهيم وبدرية" – إحدى قصص الجامعة التى

وقف عندها كثيراً – وكيف كان "إبراهيم" يهتز ولا يقوى على تمالك نفسه عند رؤية بدرية أو مصافحتها، ورغم ذلك ظل حباّ من طرف واحد، يبدو لأنه أحبها أكثر من اللازم .. ملعونة بدرية تركت من جعلها كالبدرعال وذهبت لمن جعلها فى مستوى البشر .. يبدو أن بعضنا إبراهيم وبعض أخر بدرية، والباقى كصديقى الذى فضل دور الشاهد على قصة حب أنتهت قبل أن تبدأ، والغريب فى الأمر أن إبراهيم – يا للعجب – ظل أكثر حباً وأكثر كرهاً لبدرية.

فى الإجازة التالية كانوا قد حددوا موعد الخطبة، وجاءتنى والدموع فى عينيها تبكى ذلك النصيب الذى فرق بيننا، ولم تنس أن تدعو لىّ بالتوفيق فى أخر لقاء لنا. اقتربنا من البائع الذى اعتدنا أن نشترى منه الفاكهة، أستقرا على أن يشتريا البلح، فأخرج حسن من جيبه أخر ما تبقى معه من نقود وأكمل له سامى، واشترى البلح قبل أن يستغرق البائع فى النوم فى جلسته بجوار بضاعته.

"أكل العيش مر" ... جملة لا يمل أبي من تكرارها أمامى والحسرة تملأ عينيه، غير أن أخى الذى يصغرنى قالها بصراحه زلزلتنى:"أنتو طاقات معطلة وهى دى المصيبة " وقررت أن أعمل أى شىء، فنحيت شهادتى جانبا وحملت مساحيق الغسيل والمنظفات كمندوب مبيعات .. قد أتحمل تلك المرأة التى فتحت بابها وهى تلملم ملابسها الشفافة، دُهشتْ لرؤيتى وبعد أن سمعتنى ردت فى غيظ :"هو ده وقته " وصفعت الباب خلفها، ولكنى لم أحتمل صاحب العمل وهو يلمح بأنه يلمنا من الشوارع، ولولا عملنا عنده لما وجدنا لقمة العيش. غسل "حسن" البلح فى كيسه وأخذ يأكل ثم ناولنا رفضت، فصرخ "سامى":" يا ابنى اتكلم ما ينفعش كده"، غير أن "حسن" مسكنى من ذراعى وقال فى استغراب :"محمد أنت روحت الفرح؟".

عازف الساكس يعزف على آلته، والمطرب يظهر صوته بصعوبة يغنى "سيرة الحب" .. الطبول تقرع بشدة، والزغاريد تنطلق من كل صوب، وأنا واقف بالخلف مازلت ، لا يعرفنى أحد ولا أعرف غيرها .. "أميرة" هناك جالسة فى "الكوشه" فى أبهى هيئة كأميرات العصور الماضيه .. الجميع يضحك ويبتسم فى سعادة، أغبياء لم يلاحظوا الحزن الذى يملاء عينيها أحد أسرارها التى لم تبح لغيرى بسرهما .. كنت أتمنى أن أفعل كما يفعل أبطال السينما الذين يمرون بنفس موقفى .. فأحمل عصا وأرقص لها وأبارك للعريس والعروسة وأهليهما لكنى لم أقو. قال سامى بدهشة عندما هززت رأسي "يا مجنون وروحت ليه؟" وأكمل حسن مازحًا:" يمكن راح ينقط".. فقلت:"كنت ناوى أعملها" .. انفجرا ضاحكين ولم يدم ضحكهما الذى تحول إلى وجوم وإشفاق عندما قلت: "بس ما قدرتش".

وصلنا إلى الحديقة وجلسنا على أحد المقاعد الرخامية أمامها .. الجو يزداد برودة .. حتى أن حسن قال وهو يفرك يديه فى بعضهما :"ماكنتش عامل حسابى على كده ".. أخذا يأكلان البلح حتى قضيا على كل ما فى الكيس، وقال حسن كأنه أنتبه لشىء هام :"تعرفوا أنى دلوقتى بس حاسس أنى فى نعمه لانى ما ارتبطتش بأى بنت .. ثم صمت قليلا وتغير وجهه وهو يقول: "لكن ماأقدرش أنكر مرارة التجربة أهون بكتير من مرارة الوحدة". علق سامى فى حزن: "رغم مرارة الوحدة ف لسه قلبك بكر".. بصعوبة قلت :"فى كل الأحوال بنتجرع المرارة".

كان المطر قد بدأ فى النزول خفيفا ثم أخذ يزداد مشكلا مع إضاءة أعمدة الأنارة جوا رومانسيا رائعا جعلنى أأمل أن يغسل المطر همومى ويطهرنى مما علق بى .. ظهر الابتسام على وجوهنا نحن الثلاثة، وغادرنا المكان لنسير فى المدينة غير عابئين بماء المطر.